



مشروع
أكتشف بلادي



هذا الكتاب من إعداد تلاميذ نادي التربية المدنية
"مواطنة بلا حدود" بمعهد فرحات حسّاد قرقنة



قرقنة عشق لا ينتهي



ISBN : 978-9973-64-317-9
Édition : 2021

Éditions Kitabi (Sfax - Tunisie)
Tél. : (00216) 74.405.328
Imprimé en Tunisie par IRA.





التقديم

نعم قرقنة عشق لا ينتهي

ليس من السهل أن يكتب المحبّ على حبيبته بموضوعية وتجرد، لذلك لا لوم على هذا العاشق لجزر سلبته قلبه وحيدت علمه وارتفعت به في الأعلى ليحفر في ذاكرته ويرى بوابل من حنين لا ينضب كل ما فيها جميل : أرضها بخصبها وقحطها، وبحرها بنعمته ونقمة وأهلها بلطفهم وبطشهم. لقد أصاب هذا العاشق ولهُ سرمدٌ فعاتت به الذاكرة إلى أيام الطفولة الجميلة وهو يافع يغذيه كبرياء أم حنون تقتلع من صفائر الصخر قوتا، وأب لا يتعب من عناد البحر فيقسم على تطويعه ليلبي حاجته. لم تستطع مباحج مدينة قيانا ورحيق ساعاتها اللذيذ أن تمحو ما كان يراه رائعا في هذه الجزر المعزولة المتروكة المنهوبة والمنسية. فكأن مغنطيس نسائم قرأها البسيطة وصوتها الهادئة، فيتغنى بفتنة عشيقته وينساب مادحا لأيامها البائدة وراهنها المدجج بأتعاب ومظالم وانتهاك لبهاء ربوعها الساحرة، فيراها رغم قسوة السنين العجاف شامخة تفيض كبرياء غير عابئة بخدوش الزمن الرديء.

نعم قرقنة قصّة عشق وملحة أجيال ولوحة بألوان لا تمحي، رسخت على صفحات الزمن لانتصار أهاليها على العزلة منذ أزمنة لا نعرف بدايتها، فاستطاع هذا الجزيري أن يعاند "بوروس" إله الرياح ويحوّل هول البحر إلى نعمة إلى رقصة اخترلنها نغمة مزمار وإقاع طبل ورشفة من رضاب النخيل وعصير الكروم فكان المحبّ ينتشي بعشق قدسي لا يعرفه إلا المتيمون.

وهل يتوب العاشق من عشقه؟ ولماذا يتوب؟ وحبيبته وبحرها وسفنها وعينها وتينها وزيتونها الأسود كعيون الضياء، ما زالت فخورا باسمها كيرانيس إله سرطان البحر في الأسطورة الإغريقية. فما ذنب من أحبّ آلهة؟ وهل يعاقب العابد إذا كان معبوده من قبس ومن نور ومن ضياء؟ الذنب فحسب على من لم يفهم معاني عشق الارتقاء بحبّ أديم الأرض وأريج البحر إلى مقام العلاء.

هكذا وبهذا العشق يرتوي براعم نادي التربية المدنية "مواطنة بلا حدود" بمعهد فرحات حشاد بقرقنة بهذا الحبّ الزلال لأمجادهم وأجدادهم وهم يتطلعون للربيع المقبل في الأفق المرسوم في ناديهم لتزهر أغصانهم وتثمر آمالا وتملاً كل الفضاءات كذا وجدًا وودًا في عشق للبلاد والعباد لن ينضب للأبد.



عبد الحميد الفهري

باعت متحف العباسية بقرقنة

مشروع أكتشف بلادي

العنوان : شارع قرطاج - عمارة ابن زهر - الطابق الثامن - 3027 صفاقس - الجمهورية التونسية
الهاتف : 74 405 324 - الفاكس : 74 405 328 - صفحة الفايبوك : je decouvre mon pays

الموقع الإلكتروني : www.editions-kitabi.com

البريد الإلكتروني : jedecouvre.monpays@gmail.com

اليوتوب : Je decouvre mon pays - الانستغرام : Jedecouvremonpays



أخذت غليوني عن الطاولة وأشعلته
بتكاسل الأسي. إنها إحدى الممرات
القليلة التي أتمنى فيها لو استطعت
البكاء، لكنني رجل شرقي باذخ الكبرياء لا
أبكي لفرط غيوتي على دموعي، اعتدت
الاحتفاظ بها وهكذا غدوت كائنا بحرياً
من ملح وماء.

هل يبكي البحر لأنه لا يدرك شاطئه؟
كيف تسنى لي الهروب وليس خارج
البحر من حياة للأسماك؟ قالت لي يوماً
"بحورك عميقة وأخاف ان أبكيك يوماً."
اكتفيت بابتسامة.

لم أبح لها أنني لا أثق بأحد. احتجت إلى
موقف لأختبر قلوب من حولي. أن تنقلب
عليّ الأيام ليستقيم حكمي على الناس.
لذا لم تعرف يوماً أنني أحبها. كنت أرتاب
كرمها وأرى إغداقها عليّ مزيداً من الكيد
لي، أو ليست الحياة أنني؟ في كل ما تعطيك
تسليك ما هو أغلى.

أقفلت الباب ووجدتني أسير تائها في
مدينة لا أعرف فيها أحداً. أرى المارة
الأمسهم ولا يروني. أبحث في أعينهم
أراها جوفاء. أستمع إلى صوت الطبل
والمزمار فلا أصدق أذني وأضنه هاجساً أو
وسواساً دعيتي إليه أيام الشتاء والغربة.
لكن الصوت يقوى، تتسارع معه دقائق
قلبي. أنزل في أول محطة للأرتال أبحث
بشغف عن مصدر الصوت. أحت الحظي
أتجاوز الناس في المصعد الكهربائي
فتقودني قدماي إلى مصدر الصوت : مقر
معارض كبير في فيانا.





تتنفّض ذاكرتي من سباتها، وأتذكّر
أمي بتباريتها الحمراء والسوداء
وجبتها الغولي الحمراء والخضراء
وفوطتها وهي تنضد نبتة القزّاح
وتدقّها بقدميها حتّى تستوي أرضاً ثم
تبسط عليها حبات التين "كرموص"
بعد أن تستويها وهي عادات القراقنة
منذ قديم الزّمان فأمي كانت تعول على
نفسها في توفير الغذاء والمؤونة
الشّتوية فتعمد إلى تجفيف العنب
والتين والقرنيط في فناء الدّار العربي.





أرى أيضا باب الدار والنقوش على
شكل ذيل الخوطة والخمسة والنخلة
يزينون الباب والسقيفة أين يجلس أبي
بالكدرون والكبوس وبجانبه الكانون
يلتهم الفحم وصوت إبريق الشاي
يبقى ورائحة الشاي الأحمر بالتنوع
تدغدغ أنفي وهو يظفر عراجين
النخيل لصنع الدرينة : أداة صيد
تقليدية يستعملها القرقي في مصيدة
ثابتة يغرسها في أوائل شهر سبتمبر
أصلها قرقيية ويستعملها في الماء
القصير "لرميان البحر".





كنت أتقل رفقة أصدقائي على كَرِيطة
الجريد نحو البحر. التَّسيم العليل يداعب
ملاح وجهي رغم شمس قوايل الرِّمان
الحارقة، عند الوصول إلى الشَّاطِئِ ينزل
جَمْعُنا لتعمير "الكَنُوطَة" بالركيز والجريد
ودراين العرجون فنجرتنا الفلوكة الكبيرة.
ونبدأ عندها بغرس الجريد في شكل سور
ينتهي لدراين مصنوعة من الحصر أو
الشباك بينما الحوت الصغير يقضم أطراف
أصابعي فيجبرني على تحريك رجلي وأمتنع
عن الصياح خوفا من سخرية الآخرين
وسرب قناديل البحر يتناسق مع الأمواج،
بعضها زهري اللون وبعضها بنفسجي
يخطف الأنظار. الرِّياس يتمون وضع
اللَّمسات الأخيرة على الشَّرْفِيَّة، ظننت
لسنين أن اسم الشَّرْفِيَّة مقترن بطريقة
صيدها، إذ تظل السمكة حية تسبح في
الدَّرِينَة إلى أن يتم اصطادها بطريقة
بيولوجية يحترم بها القرقي بيئته.
تبين لي مؤخرا أن اسم الشَّرْفِيَّة اقترن
بالشرفي وهو الذي يختم وثيقة الملكية إذ
أن القراقنة يمتلكون البحر منذ حوالي أربعة
قرون.
قرقة، آه يا وجع السنين!





يداعب النسيم خيالك على ظهر اللود وتحملك
 الأمواج إلى مرافئ ظنتها في غياهب النسيان
 وتراقص مشاعرك بين الماضي والحاضر فتستفيق
 على خفقان أجنحة النوارس أصدقاء البحارة
 الشاهدين المخلصين على عناء الرحلة في الشتاء
 البارد وريح الشرش القاسية، ثم تسبح مع الدلافين
 المحاذية للسفينة وترسم ابتسامة على ثغرك لهؤلاء
 الأصدقاء الفضوليين الذين يقطعون عليك وحدتك
 وأحلامك. وسرعان ما تظهر لك الجزيرة محاطة
 بسهام، هي في الحقيقة خطوط الجريد، وعندما
 تلامس السفينة مرفأ سيدي يوسف، يتعجل كل
 المسافرين للنزول ويتأهب الآخرون للصعود
 وتكثر الحركة والجلبة والكل مستبشر بالوصول.



جزر قبالة صفاقس للوصول إليها كنت
 أنتظر اللود في محطة المسافرين في الميناء
 التجاري بصفاقس أتراه كيرانيس
 أو كيرانيتيس أو كركنة؟ جزيرة على بعد
 عشرين كيلومترا من صفاقس، تتلاطم
 الأمواج على سواحلها الساحرة، أرخبيل
 يضم عشرات الجزر : اثنان مأهولتان
 بالسكان، الجزيرة الشرقية "أولاد يانق،
 أولاد قاسم، أولاد بوعلي، الرملة،
 الكالبيين، العباسية، العطايا، الشرقي،
 الجوارب، النجاة " الخرايب"، القراطن"
 والجزيرة الغربية "مليته، أولاد عز الدين".
 أما غير المأهولة فمنها " القرمدي،
 الرمادية، الشرمندية، سفنو..."



ها هو برج ملىة أين التقيت بنيروز لأول مرة، هذا البرج يفوق ارتفاعه الإثني عشر متراً بناه العثمانيون في القرن السادس عشر خلال صراعهم ضد الإسبان كان المرابطون فيه يحرسون مدينة صفاقس ويشعرون أراجها بالخطر عند هجوم سفن عدوهم من وراء البحر بإشعال النار ليلاً وإثارة صعود الدخان إلى الأجواء العالية نهاراً بحرق مواد فلاحية غريبة.



أحسن بنشوة عارمة وفرحة لا أدري مصدرها ولا أفهم معناها عندما تطأ قدمي هذه البقعة المنسية وراء البحار وتعترضني قرية ملىة أول قرى الجزيرة التي سكنتها قبيلة "ملىة" البربرية منذ ثلاثين قرناً وعمرتها وأقامت فيها أخصاصاً من القصب وأكواخاً من جذوع الشجر.



أحترق شوقاً لرؤياها. "نيروز" هي حبيبة قلبي ومهجتي وفؤادي لم أبح لها كم
أود أن أقرأ لها كل أشعار نزار قباني التي حفظتها أو أعزف على قيثارة أو عود
معزوفة حبّ أو حتى أن أغني لها "يا شباية يا بنت الغابة يا راكية العتيل سارحة
فوق إبل حطابة وتغني يا ليل... سارحة فوق الإبل تغني ويا حبيبة حبك
زطلني....

استعد لتجاوز جسر ماريانبروري " Marien brücke "
فأرى نفسي على القنطرة التي بناها الرومان والتي تربط الجزيرة الصغرى
"كيرانيسيس" بالجزيرة الكبرى "كيرانيس" بناها الرومان لنقل المحاصيل
الزراعية وتصديرها عبر ميناء كركينا "Cercina".



أمرَ أمام متحف فيانا فأرى بمخيلتي بيت
الفنان العصامي "المولدي زليلة" المعروف
بـ "عم خميس" مناضل وطني، قاوم الاستعمار
ونفي في قرونوبل الفرنسية ثم عاد في
ثمانينات القرن الماضي إلى جزيرته وحول
بيته إلى متحف صغير إذ هو الشاعر والرّسام
الفنان المرهف الإحساس. أليس هو صاحب
ديوان "بابور زمر"؟ أليس الآن بهذه القرية
الساحرة "أولاد يانق" أين لاقيتها تنزهه على
شاطئ البحر. ما توقعت لتلك الفتاة مكانة في
حياتي. فلا أنا سمعت باسمها يوما ولا هي
كانت تدري بوجودي. كانت تجمع محار
البحر تتحسسه برجليها وتلتقطه بيديها
وتضعه في كيس معلق برقبتها. لكنّها عندما
أطلت عليّ قبل سنين كنت واثقا أنّها لا تتوجّه
لسواي فما كانت أبتهتها إلا لتحدّي.



وفي يوم كانت الرياح عاتية شديدة، بينما كانت "سرسينا" تنزّه على شاطئ البحر لاحظت قاربا تتلاطمه الأمواج وتتلاعب به العاصفة فأرسلت رجالها لإنقاذ البحارة. في الغد، جاء الأمير "يانق" ليشكرها فأمرت باستضافته على الجزيرة لأيام قبل أن يشدّ الرّحال. لكنّ "يانق"، مذهولا بجمال الجزيرة، وقّع في حبّ وجنون "سرسينا" ورغم أنه لم يعرف عنها شيئا وقع تحت صاعقة مَبَاغَتَة وتزوَّج هذه المرأة الساحرة وعاشا بهذه القرية التي حَمَلت اسمَهُ وأبناءه "أولاد يانق". هل أكون أنا نفسي "يانق"؟ ولكنّي تائه مُبَعَثٌ. لم أبحث يوما عن تلك الفتاة التي فَجَرَّت في كلّ هذه الأحاسيس الجميلة. لقد تَشَعَّبَتْ قِصَّتِي في نفس المكان. أخذت نفسا عميقا في غُلُوبِي ونزَعْتُ إلى التهرّب من الأسئلة فقد انتهى زمن قصص الحبّ الكبيرة والجميلة التي كانت تجعل جيلا كاملا من الرّجال يبدو أكثر عُنفوانا وتألّقا مما هو.

هذه القرية الرّائعة "أولاد يانق" شهدت نظرات خجل وكبرياء "يانق" وقِصّة عشق "سرسينا ويانق": "سرسينا" تلك الأميرة الجميلة التي كانت تعاني الكآبة في جزيرة "إيتيقا" اليونانية بعد أن راجعت عددا كبيرا من الأطباء في القصر دون جدوى. وعد أبوها الملك بمكافأة مَالِيَة لكلّ من يستطيع شفاء ابنته، وفي يوم من الأيام قدم رجل عجوز إلى القصر وروى أنه أينما تغرب الشّمس توجد جزيرة ساحرة ستستعيد فيها الأميرة صحتّها. رُفِعَت الأشرعة نحو الشّواطئ البعيدة ووصلت إلى الجزيرة الفاتنة التي وصفها لهم العجوز. ولَعَت بسحر الجزيرة الغامضة ونسيمها العليل وهواءها الذي يردّ الرّوح وينعش النّفس. بعد إقامة شافية وعافية، قرّرت "سرسينا" العودة إلى مسقط رأسها لكنها سرّعا ما حَمَلها الحنين إلى تلك الأرض النائية أين كانت تحسّ بالسعادة فعادت إليها لتستقرّ فيها للأبد.





بدأت الشمس بالمغيب فتوصلني خواطري إلى
شواطئ "سيدي فرج" منطقة سياحية فيها
النزل والمطاعم المظلة على شواطئ رمال
ذهبية ومياه تضاها في نقاتها صفاء البلور.
تُحيطُ بها أجنة الكروم والعنب والزيتون. هنا
تُشاهدُ روعة غروب قرص الشمس وهو
يُنسحبُ ببُطء في الأفق البعيد. كنت أستيقظ
بأكر في قرقة... وكأني أريد أن أستمتع
بكل لحظة حرة قد تُسرَقُ مني فجأة لأي
سبب كان... يُفاجئني جوع صباحي لا يُقاوم
وكان شهيتي للحياة تتضاعف ولكني أبقى
أغازل البحر، رائحته بعد ليلة كاملة من المد
والجزر تزحف نحوي متوحشة تستفز
حواسي بشهية غامضة للحب. أشغل نفسي
بترويض الأمواج لكنني في الحقيقة مُنشغل
عنها بترويض حواسي والهروب بنفسني من
تلك الهواجس التي كانت تُطارِدني وتُعكِرُ
مزاج نومي.





تأخذني قدمي إلى أعلى ربوة في الجزيرة
اختارها السكّان الأصليون البربر وهم
الأمازيغ ثم الفينيقيون وخاصة الرومان لبينوا
عليها قلعة برج الحصار لمراقبة حركة
السفن. وقد جلب إليه العثمانيون مدافع
نحاسية كانت موجودة إلى حدّ ستينات
القرن الماضي.

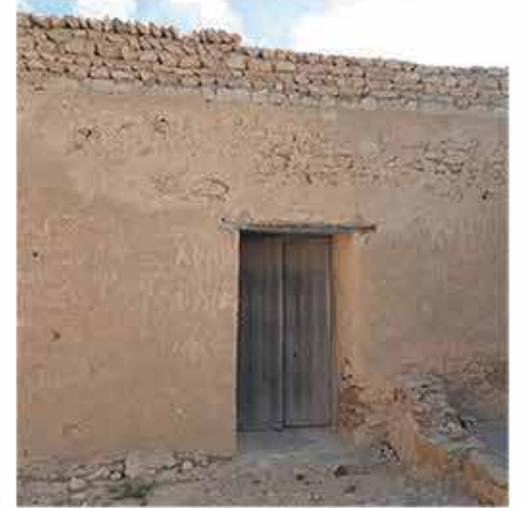


كنت أجوب مدينة كركينا المعروفة
بسرسينا الأثرية وهي من أعرق المدن
الرومانية منذ القرن الثاني قبل الميلاد إذ
بلغت درجة "مدينة حرة" في الترتيب البلدي
الروماني. أتأمل بقايا مواجهها ومعابدها
وحوانيتها ومخازن قمحها وخاصة ميناءها
التجاري والحربي الذي تشهد عليه "حجرة
البوّ": صخرة تحت الماء كانت تمثل
قاعدة ناظور تدل السفن لدخول الميناء
وكنا نسبح بجوارها ونلتقط ما تبقى من
الفخار المكسور في البحر. نحاول أن نصنع
منه جرّة أو آنية.



أتراني أعود إلى قرقنة مثلما عاد إليها القائد الكبير "حنبل" إثر واقعة
جامعة عندما دارت عليه الدوائر وقرّر الذهاب إلى مدينة "صُور" في
فينيقيا سنة 195 قبل الميلاد؟ لا أنا لا أعود إليها منفيًا بل سأعود إلى
قرقنة... سأعود... أطفئ غليوني ببطء وكأني أطفئ نارًا تلتهم جوفي.
ثم أقف فجأة، أو ذلّ لو تصمت ذاكرتي ولو للحظة، أرهقتني الذكريات
أبحث عن صمت. صمت اللامبالاة، صمت التحدي، صمت الألم،
صمت الشوق، صمت الهجر، صمت النسيان، صمت الخذلان،
صمت التعالي، صمت الكرامة. هل أعاني من ازدواجية المشاعر؟
أليس الصمت هو سبب علتي؟ أو ليس الصمت حطب ذاكرتي؟ ذلك
الصوت الذي تجلّدي به ذاكرتي؟

كنت دائما أقف على عتمة الصمت معها. هل كانت تستطيع تفسير
صمتي؟ هل كانت تعرف تماما محتوى الرسالة التي أريد إيصالها،
خاصة أنها كانت تُحِبُّني؟ فالحُب عمى في حد ذاته...





أحد الأولياء الصالحين : سيدي الخافي

أجد نفسي في "ستادت بارك" هذه الحديقة الطبيعية الغناء في فيانا أين يترجل العشايق. استنشقت الهواء وكأنني أستشقه لأول مرة. إن الذين يتمتعون في الحب نادرا ما يعرفون طعم الهواء، عبثا يحاولون تذوق الطعام أصلا، جسدي يعتاش على الحب لا على سواه. صوت الطبل والمزمار يعزف في أذني فأواصل المسير وسط الحديقة وأرى غابات الكروم والعنب والزيتان في طريق قرية أولاد قاسم أين يقف مقام الولي الصالح "سيدي الزرعي" حارسا أميننا على الحقول ومواجه للزرعي التي لا ينضب لها ماء.





يرن في صدري صوت أمي وهي جالسة
في السقيفة تطرز "طرف الرأس" بغرزة
قرقنة هذا الطرف هو غطاء تتجمل به
النساء في قرقنة وتطرزه النسوة، كل
أشكاله مستوحاة من حياة القرقنية :
المشط والشريحة والنخلة. النخلة،
شجرة الحياة في قرقنة، إذ يعتمد عليها
سكان الجزيرة لبناء بيوتهم قديما فمن
جذعها تصنع أعمدة منقوشة وأما
جريدها فيتم استغلاله لصناعة الشرفية
وعراجين نخلها لصنع الدرينة أما
تمرها فكانت أمي تجففها وتضيف
إليه ما تيسر من الزعتر ليكون غلال
فصل الشتاء وتغلي الباقي لصنع
معجون أشبه بالعسل وتسميه «رَبّ
النخل» مذاقه حلو عسلي قوي هو
غذاء ودواء وشفاء. ومن جذوع النخل
صنعت أيضا أول المراكب البحرية.

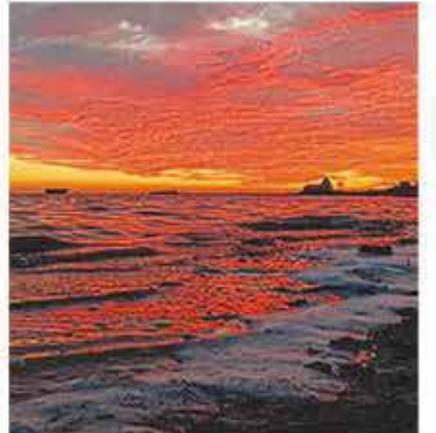


كم كنت سعيدا وأنا أغازل قطعة الخشب وأتناولها بلطف لأدق مساميرها وأثبتها في مجسم المركب وها أنا اليوم في العمل في فيانا، الكل مجبر على التمسك لي ابتسامة صفراء قاحلة مدفوعة الأجر. كنت في بادئ الأمر سعيدا شرها في جعلهم يفعلون ذلك. كنت قاسيا وأحببت القسوة : ولكني اليوم وحيدا إلى درجة لا تعقل وبعد عشرة سنين من البناء والعلاقات اكتشفت أنني لم أكون صديقا يربت على كفتي أو امرأة تقبلي عن حب. اعتدت أن أمشي طويلا في نهاية اليوم أثناء مواصلة سيرتي في أفكاري تارة نحو الذكريات... وأخرى نحو المستقبل أنا دائما على أهبة مشروع أو خارج لتوي من ذكرى. أمارس رياضة المشي السريع في زمن مفتوح بين طفولتي العادية في قرنة ونجاحي في الخارج.

بدأ شريط ذكرياتي يعود بي إلى أيام عملي في منشئ لصناعة السفن بإحدى عمادات الأرخيل.
لعلها كانت العطايا؟ لا بل هي الشرقي أو القراطن، أم هل كانت أولاد بو علي؟ لا بهم!!! فجّل عمادات الجزيرة ارتكز فيها منشئ أو عدة مناشئ قد تبنت هذه الهندسة الفذة وهذا الفن العريق على مرّ السنين وذلك تكريسا للنشاط الاقتصادي الأساسي لأهالي الجزيرة ألا وهو الصيد البحري. فثلاثة أرباع رجال قرنة يسترزقون من الثروة السمكية. إذ ليس من العجيب أن هذه المنطقة تصنع ما يقارب أربعة آلاف وخمسة مائة سفينة وكانوطة وألف بابور تنتج مئتين وخمسون طنًا من الأسماك سنويًا. ترى على مدّ البصر مجسمات لسفن تعددت أحجامها وأشكالها لتعدد الاستعمالات والغايات منها : فهذه كانوطة صغير حجمها استغلها أهالي الجزيرة لاستخراج النشأف أو صيد الأخطبوط وحتى الكلاطي وهذه فلوكة أكبر حجما من الكانوطة يتوغّل بها في البحر. أما هذا فهو ديبوسط كما أطلق عليه القدامى وهو مركب شراعي أصبح في الآونة الأخيرة محدود الاستعمال نظرا لاعتماد البحارة على الماكينات.

كان المشي في قرقة عادة لدينا. كم مشيت مع جبراني إلى سيدي ألف النخل أو "فونخل" كما يسميها الأهالي واحة عفوية وشطوط مترامية مهياة طبيعيا لاحتضان نزل ومنتزهات وحمّامات صحية بالمياه المالحة والمراكز الرياضية ومأوى المسنين.

في قرقة، في هدوئها صمت يعلم الغناء، الغناء من الإصغاء إلى حفيف الأوراق وعزف الطيور. تعلمت في قرقة أن أصغي إلى صمتي وأنا أمشي في الغابة... بالصمت نعرف متى يكون الوقت صحيحا أو خاطئا في الموسيقى... كذلك في الحياة. لقد قلت لها أن التأمّل والإصغاء يمكننا من ضبط الإيقاع. الإيقاع يمنعنا من أن ننشز أو نلهث أو أن نمضي في كل صوب. الناس الذين نراهم تائهيّن في الحياة لم يأخذوا الوقت الكافي لضبط إيقاعهم قبل أن ينطلقوا. إنهم لم يخلدوا قليلا إلى صمتهم العميق، ليزنوا خطاهم قبل الانطلاق الكبير.



كنت أرتاد مدرسة قرية الكلابين : من أعرق المدارس الابتدائية بالبلاد التونسية، منذ 1896 والعلم يشع من هذه المدرسة التي تخرج منها نخبة مرموقة من المتفوقين أنهبوا دراستهم بالمدن الدراسية الكبرى ومنهم من تحوّل إلى فرنسا ونافسوا المستعمر الفرنسي وملؤوا الإدارات والوزارات بالكفاءات العالية. كانت قرية الكلابين مركزا إداريا للخليفة ممثّل القنصل الفرنسي والقائد بصفافس وكان الخليفة يؤمن الخدمات الإدارية.

كانت أياما على فقرها وخصاصتها وبساطتها من أجمل أيامي. أنتظر بفارغ الصبر خروج أخي من بوابة المدرسة. هل كنت أحبه؟ لا أظن، في تلك الأيام، كل ما كان يهمني وأنا أنتظر ألا يتأخر. كرهت انتظاره وكان يعاقبني كلما تأخر، يعاقبني لأنني أنتظر في الحقيقة نعاله. لم يكن لدينا اثنان واضطربنا للتشارك حيننا والتشاجر والتناحر أحيانا...

أخي أبقيته جميلا في ذاكرتي أحاول أن أتذكر كل ما هو جميل واستثنائي في ذاكرتي. لا أريد ان أقص عليكم ذكريات بشعة، لا أريد أن ألتفت إلى الخلف فلا أرى إلا الخراب. "لا يولد البشر مرّة واحدة، يوم تلدهم أمهاتهم وحسب فالحياة ترغمهم على أن ينجوا أنفسهم" على حد قول غابريال غارسيا ماركيز.

إيقاع الحياة يشتق حين تمرّ من شاطئ أولاد بو علي إلى الرملة مركز الجزيرة، تمرّ بصخب المصالح الإدارية والصحية والتعليمية والاتصالات... ولكن أليست هذه القرية الأصلية؟ لا، الرملة استحداث عصري، فالقرى القديمة كانت داخلية مثل "الممالة" و"الدويريات" إذ كانت العائلات تعتمد على منتوج الفلاحة البعلية أكثر من مردود البحر. وكانت أيام جني العنب كأنها أعياد نحتفل بها في بهجة عارمة. عاد صوت الطبل والمزمار ليخترق صمتي. هو فعلا لا يفارقني، عجيبة هي الحياة بمنطقها المعاكس. كان هذا الصوت عاديا، مبتدلا في حياتي في كل موسم وعرس واحتفال وحتى استقبالا لشخص لا تستحق. الآن تراني أركض خلف صوت الموسيقى لاهثا. فتهرب مني الموسيقى. وما أكاد أجلس وأقع نفسي بأنها لا تستحق كل هذا الركض حتى تأتيني هي لاهثة. وعندها لا أدري، أوجب أن أصم أذني وأدير لها ظهري أو أن أسترق السمع وأفتح لها ذراعي. الآن أشفق على نفسي من غبائها وكيف أشرح لها أن الإنسان لا يعيش إلا بملاء حواسه. ولكن الحواس تروض بالعلم بالمعرفة والتربية. كم كانت أمانينا صغيرة أحلامنا متواضعة عند طفولتي بجزيرة قرقة.



هذه القرية هي مسقط رأس كبار الزعماء في النضال الوطني والاجتماعي ويتصدرهم المناضل فرحات حشاد الذي حوّل الحركة النقابية إلى قوة لدفع حركة التحرّر من الاستعمار. لذلك اغتاله الفرنسيون سنة 1952. والعباسية أيضا بلاد خلفه الحبيب عاشور بطل واقعة الشهداء في صفاقس 5 أوت 1945 إذ كان للعمل الشاق والمرهق بالملاحة دور في تأجيج روح مقاومة الاستعمار بكل أشكاله. كل هذا يتجلى خلال آخر زيارة اقترحتها نيروز علي قبل السفر.



ها أنا أعبر نهر الدانوب «Danube» كما عبرت نيروز حياتي ومضت إلى مصبه صوبه صوب البحر دون أن تلتفت إلى الخير الذي تركته علي ضفافي. نيروز جمالها مسالم، مرحها بسيط يجاور الحزن أحيانا غامضة وهادئة كالجو كاندا وأنا أكره الملامح الساكنة والأنوثة الهادئة والأجسام الباردة. فمن أين جاءها كل هذا البرود أمن استسلامها للقدر أم من جهلها لحيني؟ ومن أين جاءتني كل هذه الحرائق؟ أمن تمردي؟ أمن براكين الكلمات التي تنفجر داخلي باستمرار؟ أم من جذوري "القرقية"؟ ألسنت من أحفاد حشاد ومن معاصري الحبيب عاشور، أبناء قرية العباسية بقرقنة، قرية رغم صغرها كانت مرجعا تاريخيا لما فيها من آثار رومانية وأفراان إسلامية ومتحف للتراث ومرسى لتصدير الملح. فقد كانت العباسية مركزا اقتصاديا قديما بملاحتها التي شغلت منتي عامل فمدوا 20 كلم من السكك الحديدية لربطها بالقرى المجاورة الشرقي والعطايا لتحويل الملح إلى المرسى بواسطة عربات كانت في البداية مجرورة بالجمال ثم مدت الشركة الحديدية واستعمل القطار ما بين سنتي 1802 و1936.





زيارة متحف العباسية تحفة فنية تتجلى من خلال أروقها الحياة اليومية للقرقي، يحكي تراث "البر" ويسرد حياة البحار وأساليب الصيد المختلفة وأنواع المراكب والكفاءات اليدوية لاعتماد الصوف والخلفاء ومواد النخيل وهو أيضا مقر للتربصات الجامعية. ألم يعترضك الدكتور والباحث عبد الحميد الفهري بابتسامته المعهودة ولم يعطك لمحة عن تاريخ قرقة؟ أو لم تستمع له بشغف؟ ألم يعرض عليكم الحوت المشوي وسلطة الأخطبوط و"القليط" بمطعم المتحف المطل على البحر؟ ألم يعترضك اللود في مدخل المتحف؟ مركب قعره مسطح مطلي بالقطران، ويستعمل بشراعين، وهو رمز للكفاءة المحلية في صنع السفن. ألم تكن جزر قرقة رائدة في التواصل مع البلدان الواقعة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط؟ كم من سفرة أمنها مركب اللود لتصدير المواد الفلاحية كعصير العنب وزيت الزيتون والحبال والاختبوط المجفف وشرايح التين الجاف؟ يرسي الرياس بمهارة في موانئ طرابلس والاسكندرية وغزة شرقا ومالطا وصقلية ويجلبون على متنه بضائع لترويجها بالبلاد التونسية. كان هذا المركب وسيلة استيراد وتصدير أما الآن هل تاهت مراكب العرب؟





كما تاهت مراكيبي بحور عيني نيروز الحسناء؟ ها أنا
أجدف بحثا في الامواج عن ظلها وعن بقايا جزيرة
غناء تتقهقر بفعل الزمن؟ هل أغازل نيروز أم قرقنة كما
يغازل الإنسان قاتله؟ يفعل إذا ما كان قاتله يحكمه
بالحب لا بطائرات الآف سة عشر. تأخذني قدماي الى
مرفئ "امارسدورف" Emersdorf للقوارب فتعود
بي الذكري لميناء العطايا وأحواضه المكتظة بالسفن
ومنتزهات الصيف البسيطة الشاهدة على قصص
عشق وغرام أبنائها وبناتها. أجواء خرجة الوئي
الصالح "سيدي مسعود" على أنغام الطبل والمزمار
التي لا تنفك تصدح بأذني! هل هو الصوت فعلا أم
فرط الذكريات... هناك على شاطئ النهر يتنزّه المارة،
يسهرون كما في قرية الشرقي التي كانت تعج سكانا
وحبوية. في قرقنة الشواطئ ساحرة... فهذا شاطئ
"بونومة" وذاك "مرسى العشرين" والآخر "برديماس"
والنجاة ومنها إلى القراطن المستحدثة بمينائها
الحديث الصاخب ليلا ونهارا ومنتزهها الذي افتك
الأنظار وحركيته الثقافية عبر جمعيتها المحلية.



قرية "الخرائب" هكذا كان اسمها بمعنى الآثار. لقد كانت بها آثار رومانية وتفرّعت عنها أحياء صغيرة وهي من أكثر القرى براعة في صيد الاخطبوط ومن ضواحيها قرية شاطئ النخلة حيث كان اللود الذي انتقل على متنه زعيم الحركة الوطنية الحبيب بورقيبة خلسة الى "زواره" بليبيا سنة 1947 ليتحوّل برئاسة علي الزاهي وخليفة حواس ومحمد العون الى القاهرة للتعريف بالقضية الوطنية إبان الاستعمار الفرنسي. لاتزال صورة بورقيبة "بالقدرون" مرسمة في ذاكرتي.



نادي التربية المدنية
"مواطنة بلا حدود"
بمعهد فرحات حشاد قرقة



تقديم النادي :

نادي التربية المدنية "مواطنة بلا حدود" بمعهد فرحات حشاد قرقة يهدف إلى تعميق الانتماء للوطن لدى الناشئة وذلك من خلال التعرف إلى بلاده بداية من منطقتهم "أرخيل قرقة" جغرافيًا وتاريخيًا على مختلف الحضارات التي تعاقبت على الجزيرة: البربرية، الرومانية، الفينيقية، البيزنطية والعثمانية... ولاكتشاف مواطن الجمال فيها من شواطئ ومناظر طبيعية خلابة ولمزيد الارتباط بها والدفاع عنها بطريقة موضوعية متحضرة. وذلك بهدف غرس روح المواطنة الفعالة وتنمية ما تزخر به الجزيرة من تراث وثروات برية وبحرية.

اكتشف تلاميذ النادي مختلف الكتب والمراجع والمواقع ومقاطع وحضارة وتراث قرقة المادي والامادي وقمنا بزيارات ميدانية لأهم المعالم التاريخية بقرقة : كبرج مليئة، برج الحصار، متحف العباسية وبيت بورقية... كذلك تمتع التلاميذ بدورة تكوينية في صنع الفيديو إنجازا وإخراجا.

كذلك وضع الإصبع على مختلف المشاكل التي يتعرض لها سكان الجزيرة من النقل إلى الصيد العشوائي إلى عدم المحافظة على المحيط واقتراح الحلول المناسبة وغرس قيم الفعل المدني وعدم الاقتصاد على التدمير أو التصادم أو الهروب.



يكفي من الذكريات والتاريخ! لقد سئمت! أريد أن أكون كالزواحف أتخلص من جلدي وماضي بدون عناء لا كامرأة تعيش مزدحمة بكرائب الذاكرة! كيف لرجل مثلي أن يعيش ثملا بهذا القدر من الذكريات؟ حياتي كقطار... مرّت بي النساء أحمل عن كل واحدة أمتعته وماضيها وحاضرها وأشارها رحلتها ومهنتها وأضيف أسماء المدن التي مرّت بها إلى التي عبرتها ثم أكتشف أنني أخطأت الوجهة فأذهب نحو حب آخر وأترك عقلي مذهولا من أمري جالسا على حقيبة...





المشرفة على النادي :
الأستاذة : ريم لنقر



التلاميذ المشاركون في الكتاب :

فرح الشيخ - فرح بن شيخة - ريان دحمان - أحمد فريحة - أميمة فراجة - هبة سويس - فراس فقير - تسنيم خشارم - حنان هديدر - سيرين فقير - علاء مقني .

الزيارات الميدانية :

- زيارة متحف سرسينا للجزر المتوسّطية.
- زيارة برج الحصار ومنطقة فونخل.
- زيارة برج مليّة.
- زيارة ملاحه العباسية.
- زيارة موانئ سيدي يوسف، العطايا، القراطن.
- خرجة بحرية لاستكشاف الشرافي.

الانشطة :

- دورة تكوينية حول السيناريو.
- دورة تكوينية حول الكتابة.
- دورة تكوينية حول التصوير الفوتوغرافي.

الشكر :

- السيد عبد الحميد الفهري، باعث متحف سرسينا.
- السيدة ضحى بن رمضان، مديرة دار الثقافة بقرقنة.
- السيدة نجلاء الشيخ، مديرة مركز الإعلامية الموجهة للطفل.
- السيدة سناء الفهري والسادة نزار القمري، عصام البيوضي والحبيب بالي لبعض الصور.